

الفلسفة الماركسية

في الاجتاع والسياسة والاقتصاد

على أدهم

الشيوعية مذهب في الاقتصاد وخطة في السياسة وعقيدة فلسفية تدن بها في العصر الحاضر دولة عديدة كثيرة الكان مزاراً للأطراف ، وبحاول تبيت قواعدها وبسط سلطانها ، ولا معدى لنا اذا جازنا ان تعرف طليعة العصر الحاضر ونتم بمشكلاته البارزة وسياساته المتعارضة من ان تختبر في تراحة ودقة نواحيها ودعوتها وأجهااتها ووعودها ، وقد يتراعى لبعض انت انكتابة عنها تزيدها انتشاراً وتأييداً ولكنني لا ارى صواب هذا الرأي ، ولو جارينا التناهي به لأمكننا عن دراسة الكثير من مسائل الفكر ومذاهب الفلسفة ، وفي الشيوعية كما في سائر المذاهب اقلية جوارب صادقة وبها كذلك جوانب من النقص والزيف والباطل ، وبين دعائها رجال خلقوا من طينة البطولة واحملوا في سبيل عقيدتهم ألم التشريد والتي وعضاضة الحاجة ومرارة الحرمان ولكن اصدق الناس اخلاصاً واصفاهم نية قد يقع في الخطأ ويتصور المحال ، وكثير من الآراء التي شقيت من جرائها الالسانية لم تصدر عن اشرار الناس . وأما ادعائها قوم لا سيدن الى الشك في صدق سرورهم ، والشيوعية ترى قلب النظام الاجتماعي وترى الحالة الحاضرة ظلمة فناكة وأنها ستضي بالعالم الى الفوضى وتؤدي به الى الحراب والدمار فهي اذن امر خطير يستوجب التروية وانعام النظر ، وليس من الحق ان تفرض ضرورة بقاء النظام الحالي وامتناعه على التغيير فالتاريخ كله حركة تحول مستمرة ولكنة في قس الوقت ليس سلسلة انقلابات مفاجئة وثورات طارئة وأما هو حركة تطور تدر فيها الثورة

والشيوعية مثل النقاشية تحاول التوفيق بين السياسة والاخلاق وهي تصير خاص للحياة وطية الوجود وهي تتضمن نظرية للمعرفة وفلسفة لتاريخ

والشيوعية من حيث هي نظرية متأسكة ومذهب فلسفي كان يطلق عليها في اول امرها اسم «النادية الجدلية» وتشير هذه التسمية الى تفرعها من فلسفة هيجل ، وبذهب هيجل الى أن تقدم الفكر وسائر الاشياء إنما ينشأ من الصراع بين العناصر المختلفة المتناقضة ، ولتظريته جانبان فهي من جانب نصف الطريق الذي اجتازته الاشياء الى الوجود . ومن جانب آخر نصف السبيل الذي ينبغي سلوكه

إذا اردنا الحلوص الى حقائق الأشياء، ويرى هجل ان الصليتين عملية تقدم لاشياء وعملها وعملية الاهداء الى الحق - يكونان جانبين محتشبين للحقيقة الواحدة ، وكادول مراكز يرى اسبقية الجانب الاول ونسكى هجل يزود الاسبقية الى الجانب الثاني . وكل نزعة من النزعات في اذن انتصارها تعمل على خلق نزعة معادية لها ولا يزال هذه النزعة الجديدة تشدد وتقوى حتى تتغلب عليها وتجليها عن الميدان ، ومن أمثلة ذلك النزعة الفردية في القرن التاسع عشر فقد بنت نقمة وأوفت على الكمال ولكن انتصارها بالباهر كان مبداهة الى خلق النزعة الاجتماعية التي قارستها وهنت على شوذوها

وكان هجل يعتقد ان القوة الدافعة في هذه السلبية قوة فكرية صرفة ولكن مراكز أنكر عليه ذلك لأنه يماذيه النسبية كان يرى ان الافكار ان لم تكن أفكاراً صادرة من عقول خاصة فهي اوهاهم عديدة النفيمة . وكان يستسك بالنظرية المادية التي ترى ان الافكار نفسها تتكون من تأخير آلية وانكاساتها ، والافكار التي تقوم بالعقل إنما منشؤها الاحداث والحركات التي تعرض في العالم خارج العقل ، فكواش العالم المضيوي هي التي تخلق الحوادث في مثل اللسان ومن ثم يعمم الحركة التي ليسها « تاريخ » وعقل الانسان جزء من هذه الحركة ولكنه ليس هو المنكر لها ويخرج مراكز بنذهب المادي بطريقة هجل الجديدة ويستخرج من هذا المزيج تفسيره

لتاريخ وتعليه لحوادثه . وملخص نظريته ان الحوادث تنشأ من الصراع بين النزعات المتباينة ، ويمكننا ان نصل الى ثياب التاريخ بفهم النزعتين المتصارعتين ، وكما أننا في عالم الفكر اذا اقتنينا أثر نزعة من النزعات لا مفر لنا من الاتهاء الى تقيضها فكذلك في عالم الواقع يقتضي نجاح نزعة من النزعات ظهور النزعة المتأوتة لها فنظام الاقطاع مهد السيل لظهور الرأسمالية ، والنظام الرأسمالي يرحي الى الطبقات الفقيرة الصمور بالتفاوت بين الطبقات وبذلك يطع السلاح الذي يحارب به ويملي للنوة التي تضي عليه والقوة الدافعة وراء العملية الجديدة - في زعم مراكز - ليست عقلية وانما هي حادثة طبيعية مادية ، وليست ارادات الناس ولا أفكارهم هي التي تغير وجه التاريخ وترسم على اتجاهاته . وانما هي الفواعل الطبيعية وتكثف المواد الخام ومبتكرات الصناعة ، ولما كانت فكرة الاختراعات وتأثيرها البعيد في الفنون والصناعات قد تظهر قوة الفكر الالساني في توجيه الحوادث وصياغة التاريخ لذلك عني مراكز بأن يوضح ان الاختراعات لا تشب من عقل المنكر ثامة المتكويين ناهضة الجناح وان ما يشكره الناس في الواقع لا يتفكرونه من تلقاء أنفسهم وبفكرهم الفردي وانما يمد لهم سبيله وبذلك لهم حصيه طبيعة المشكلات التي تستقبلهم بها الظروف اللطيفة بهم والأحوال العارضة لهم وفضلا عن ذلك فان طوارىء النصر وبيوادر الأحوال هي التي تحمل الاختراع وتسهله او تذيبه وتبلي شأنه وتعمل على اصلاح عيوبه واستكمال نقصه ويرى مراكز ان أساس المجتمع قائم على إنتاج الوسائل التي تصون الحياة البشرية وتدفع عنها عوامل الحاجة وتوزيع ذلك الإنتاج . انقسام المجتمع الى طبقات أساسه طريقة توزيع

الاتاج والأسباب النهائية لسك التغيرات الاجتماعية والتغيرات السياسية لا يبحث عنها في عقد
الالسان وأهتدائه إلى الخلفى الخالدة وأدراكه للعدالة وإنما في تغير أسباب الاتاج والمبادلة
ولا تنسب في فلسفة العصر وإنما في اقتصادياته فإذا أصبح بخلاً مكان يراه الناس حقاً وحرار
ظلماً ما كان يراه الناس عدلاً فتما سبب ذلك التغيرات الصاعدة التي تطرأ على ضرائق التوزيع
والاتاج ونجملها سائفة بنظام الاجتماعي السائد الذي يتركز على أسس اقتصادية تدغمها التغير
وهذا التغير الذي يؤدي إلى نسخ نظام المجتمع وتعديل أسسه ليس وليد القدر أو سلب الرغبات
الإنسانية وإنما مصدره الاتاج وهو مسألة ليست مستقرة في عقولنا وإنما هي قائمة خارج عقولنا
ومستقلة عن إرادتنا وأعمالنا والاشتراكية الحديثة إن هي إلا انعكاس هذا الصراع في العقول
ومقومات الحياة الثقافية وخصائص المجتمع الاخلاقية والدينية وإمجاهاته القانونية والفنية
جميعها في رأي الشيوعية مشتقة من الأصول الاقتصادية ، وأدوار التاريخ المتعاقبة منشؤها صراع
الطبقات والطبقات المتصارعة . . . تتج الاحوال الاقتصادية

وعلى هذا التظ من تحليل بناء المجتمع وعناصر تكوينه وتغير التاريخ تقوم الافكار الشيوعية
وترتكز اسس بلذهب ومن مناقبها تفرغ فروعه وتطرده أحكامه

والالسان لاجل ان يحصل على الثروت الذي يقيم اوده ويستحضر اثبات اني تقيه طوارىء
الجو وتقلباته قد تعود ان يتناول المواد الختام ويحتال فيها حيثه ويعمل فيها فكمه لتواتي حاجته
وتفي بمطالبه وتشيخ غرائزه ومن ثم تنشأ علاقة بين الانسان وبين الاشياء وهذه العلاقة
بضرورة الحال تضمن كذلك العلاقة بين الانسان والانسان لان طبيعة تناول تلك المواد تستلزم
التخصص وتوزيع العمل وعلى مدى الايام ينهض في آثار ذلك حقوق واميازات يدعيها بعض
القوم ليفردوا باستغلال بعض الاشياء ويذودون عنها الغير ومن هنا تنشأ الملكية من ناحية
والحرمان من ناحية اخرى ، ويرى المالكون ان الاشخاص المحردين من حقوق الملكية يمكن
استخدامهم في الاستغلال تحت اشرافهم ورقابهم لقاء اجر زهيد يدفعونه لهم . وقد نشأت من
اساليب الاستغلال تلك الصور المختلفة في معاملة الانسان للانسان ، وتلعب من ذلك ان العلاقة
بين الناس في مختلف العصور قائمة على اسلوب تلك الاشياء وطريقة تناولها وضعها وقد ظلت
تلك العلاقة طوال العصور لتتغير من ثابته في جوهرها . ومن جرائها انقسم المجتمع الى فريقين
كبيرين ينادلان العداوة والبغضاء ، وعلاقة الاستغلال ولو انها لم تتغير في الجوهر ولكنها مع
ذلك قد اخذت صوراً متعددة وبمركزها ماركس من بينها ثلاثة انواع رئيسية حدثت في تطور
المجتمع التاريخي فهناك الاستغلال الذي اتخذ صورة الرق والاستعباد . وهناك استغلال عهد
الانقطاع وقد تلبها صورة الاستغلال في عهد الرأسمالية والاستغلال ظاهر الظهور كله في صورتين
المتقدمتين سواء في علاقة العبد بسيداه او الامير الاقطاعي برعيته وفي العصر الرأسمالي ظلت العلاقة

واحدة في الجوهر ولكن يحنى أثرها ويطلق من وقعها مع المنتجات لا استعمالها المباشر ووجود الوسطاء بين المنتج والمستهلك وذبوح الحرية السياسية وسرور المبادئ الديمقراطية وتقدم الحاجات رهن بتغير العلاقة بين الانسان والاشياء او بنظ آخر يتوقف تقدمها على الاستلوب الذي يتناول به الانسان المواد الخام ويهيئها سلباً ثمض بحاجته وتكفل بمطالبة ومن آونة لاخرى تنبع في عالم الصناعة مستجدات تنتج صوراً جديدة في المجتمع وكما سميت الاختراعات في معارج الرقي وكبر نصيب الناس من البراعة الصناعية واستفاضت المعرفة واستتارت الافكار استنرم ذلك صوراً جديدة لنظام الاقتصادي

وسن الآداب وقواعد الملوك وشرائع القوانين في مختلف المجتمعات ثم على حقيقة النظام الاقتصادي السائد لانها لغات تماً لحاجات الطبقات المتحركة للمستلة وهي ترمي من ورثها الى تحيد العلاقة الخاصة بين الطبقتين وتوسيع استغلال احدى الطبقتين للطبقة الاخرى، وجميع النظم السياسية ومذاهب التشريع مرتبطة بالنظام الاقتصادي فهي ثمرة ومرآة معاً، وقد كانت العبودية باحة ومعترفاً بها في المجتمعات التي كانت تستغل العبيد ومن ثم يرى ماركس ان ركيز الطبقات المستغلة الى التماس الحق وتكوينها على تشدان العدالة امر لا غناء فيه ولا رجاء في غايته لان تلك العدالة المنشودة قائمة على افتراض صحة النظام الذي يورون به ويخرجون على منليه وليس هناك عدل مطلق ولا حق مجرد — كما يرى ماركس — وانما هناك معايير لبحق وتصورات للعدالة ومن بين تلك المعايير والتصورات ما يتوسع وجهاً خاصاً من وجوه التقدم الاقتصادي ويرى صلاحه ومطابقته للحق ومسارته للعدالة

ويقف الشيوعيون من الدين موثقاً ببدأ عن الاعجاب والتقدير بل هم لا يحجمون عن مقاومته وشن الغارة عليه والصل على تقويضه لأنه في عرفهم ضرب من ضروب التخدرات التي تراخي العزيمة وقلم النشاط وتغري بالزهادة والاستسلام، وهم يرون ان الطبقات المتحولة قد اتخذت الدين وسيلة من وسائلها التي تسعين بها على حشد عقول الطبقات الفقيرة بالأوهام والخرافات وتصرفها عن مجابهة الحقائق وادراك ما ينصب لها من الاشرار وما يحاك لها من الدسائس ويستترعى الشيوعيون النظر الى ما ورد في الكتب المقدسة عن تحيد القاعة ومدح التواضع والخشوع وذم الكبرياء والخبثون

ولنظر الشيوعيين الى الآداب والفنون وسائر أنوان الحياة الفكرية متأثر بمذهبهم في الاقتصاد والآداب عندهم لا ينظر اليه منفصلاً عن السياسة والاقتصاد لأن الأدب الحق في زعمهم هو الذي يزيد الحياة قوة، ولما كانت حياة الانسان بمنزلة حياة المجتمع وتقوية الحياة تتطلب تسويل توزيع النشاط الانساني بحيث يثمر ثمرة المرجوة ولا يذهب عبثاً لذلك يرى الشيوعيون ان الأدب الذي يسو طائفاً بأخصان شجرة الرأسمالية نمواً فضولياً هو أدب قليل القيمة زهيد

الثقمة والأدب الخيد هو الذي يدعو الى زيادة الانتاج الانساني وبماون العاصر التي تسفل لتحقيق ذلك فنادته اذن النضوية ودعايته متجهة الى محاربة التمييز للبدع الخلقى وقبها أدب الماضي هي في أنه يقدم لنا صورة آنية للظروف الناضية وأحوال الطبقات في تصور الخوالي والأدب في العصر الحاضر يجب أن يبين على احداث الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية وهم يؤثرون الأدب القريب من لغة الشعب وتصوراته ولا يرتضون الروايات التي تدور حول حياة الافراد وإنما يفضلون الروايات التي تصف صراع الطبقات لأنها تهيئ سبيل التقدم نحو الاشتراكية ويرى الشيوعيون ان الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية لا يتم بالطرق السلمية ولا مناص فيه من اصطاع الشدة واستعمال العنف والقهر وذلك لان النظم السياسية والقانونية والأدوية القائمة على أساس اقتصادي خاص تولد في النفوس الرغبة في الدفاع عنها والاستئصال في سبيلها حتى عندما يكون ذلك الأساس الاقتصادي قد آذن بالسقوط وأشرف على الزوال ، وكل نظام سياسي قد منح طبقة خاصة حقوقاً محرص عليها وتنسك بها لا يمكن تبديله دون الاستهداف لمقاومة الطبقة المستتعة بامتيازاته والمحتكرة لخيراتهم وهي تحاول ان تتفق الناس من طريق اشراكها على تربية للنفس من النظام الراهن كقيل بتحقيق العمالة وان الخير في بقاءه وحياطته وهكذا يتبع النظام السياسي جانداً في حين ان الاختراعات الحديثة في عالم الانتاج قد جعلت الحاجة الى تعمير شديدة ملحة ويضع في روع الطبقات الفقيرة ان وسائل الانتاج واساليب الديمقراطية غير شافية ولا مقنعة وأهم مضطرون الى احداث الانقلاب بالقوة والصدام ويرد الشيوعيون الحرب لتكبرى الى اسباب اقتصادية وذلك ان قوى الانتاج كانت في تقدم مستمر وزيادة مطردة في حين ان النظام الاجتماعي الراهن ظل بغير تعديل وترتب على ذلك ان أعان السلع ارتفعت الى ثمن لا يمكن المجتمع من استيعابها جميعها فاشتدت من جراء ذلك الحاجة الى التنازع لفتح اسواق جديدة تحت ستار الاستعمار واتبع ذلك الحرب وظهور قوة الطبقات الفقيرة له نظائر في التاريخ لأن كل طبقة استأثرت بالفوز استدعى وجودها ظهور طبقة ساوثة لها وهذه الطبقة ترحزها في الهابة عن مكانها وتتنصب فوقها ولكن اشتداد قوة الفقراء في العصر الحديث طراز فريد من الحركات الاجتماعية لان نزاع الطبقات في العصور السالفة كان يشي بتغلب طبقة على طبقة وأما امتصاص طبقة الفقراء في العصر الحديث فلها مؤيدي الى خلاص الانسانية وتفضي على نظام الطبقات وهذا هو مصدر قوة العقيدة الشيوعية لأن انصارها لا يسلمون لتغلب طائفة وإنما يسلمون لتحرير الانسانية ويشعل هذا الاعتقاد حماسهم ويمت في قوسهم حب التضحية والتفاني في التبشير بالمبدأ وتدعيم العقيدة ويرى الشيوعيون ان تحرير الانسانية والغاء الطبقات وازالة القوارق الاجتماعية يستلزم فترة تمهيدية تسولي خلالها على أغنة الحكم ديكتاتورية جريئة لا يحجم من استعمال القوة

والارهاب توطيداً لمكاتها ودفاعاً عن حريتها ومتى استقرت الاحوال وزان الخطر بطلت وظيفة الحكومة وانتهت مهمة الديكتاتورية

وبشك الشيوعيون في نجاح الديمقراطية لانها في عهد الرأسمالية لا يمكن الا ان تكون خيالاً لا حقيقة له وقد دامت اكثرية اناس من الطبقات الفقيرة التي لا تملك شيئاً فمن انست انكلام عن الحرية الفردية او قدرة الفرد على التأثر في نظام المجتمع الذي يعيش فيه ، ولا حرية ان لا يمتلك شيئاً ومهما تكن الحكومة ديمقراطية فان النفوذ سيظل في يد الميطرين على القوى الاقتصادية لاستيلائهم على وسائل الانتاج الصناعي ، ولا نزاع في انه مما يبعث الارتياح والسرور ان يباح للانسان حرية التند والمناقشة ولكن الذين لا يتفكرون نقدياً صالحة او يهتمهم العمل المضي لا يرون في حق الاستماع بالتدسوى نوع من الترف لا قبل لهم به ولا رغبة لهم في تذوقه لانهم احوج الى ملء بطونهم منهم الى تحريك ألسنتهم وما دام يقضهم القوت فهم زاهدون في الحرية ، وحرية التفكير وحرية المناقشة والبحث والتعبير عن الرأي هي أقسى ذخر الديمقراطية وأسطع آياتها ولكن الشيوعيين يشكون في وجودها ويكفرون قيمتها وهم يرون ان الرأسمالية اذا اشتدت بها الازمة وحضنها الحاجة فيها لا تزدد في الفناء هذه الحرية الوهمية ونظير على حقيقتها سافرة غير متوارية ويضربون لذلك مثل افقافية في ايطاليا والنارزية في ألمانيا والشيوعية في نظريهم هي وسيلة انقاذ الحضارة في هذا العصر المضطرب الخائس لأن الرأسمالية ستظل في كفاح عنيف وتظل دولها يصارع بعضها بعضاً صراعاً يندر بأسوأ النتائج ويقوض العمران ويصف بشرات الحضارة ولعل أقوى نقد يوجه الى الشيوعية هو قيامها على طريقة هي الجدلية لأن هذه الطريقة صحيحة من ناحية المطلق وما وراء الطبيعة ولكن تطبيقها العملي على الشؤون الدنيوية والحوادث التاريخية لا يخلو من الاعتداء على الحقائق والاساءة الى التاريخ ، وعند ما تعرض حوادث التاريخ ترى انها لا تطابق تمام المطابقة الأسلوب الجدلي الذي يقول به هيجل والتاريخ مزيج من الضرورة والحرية والنظام والمصادفة والعوامل الهامة الأساسية وكذلك الحوادث الناتجة الزهيدة ونياراته مختلفة وعواقبه كثيرة فالطوح له آره في توجيه التاريخ وكذلك الدسائس والغيرة والمسائل الجنسية والحماة الدينية والهوسة المثالية ولا يمكن تجاهل اثر الأفراد البارزين الذين نسبهم « ابطال التاريخ » واخضاع التاريخ لامل واحد يقتضي تجاهل الكثير من حقائقه والألتواء في تفسير حركاته وشؤون الحياة الانسانية ليست جميعها خاضعة للعطاق مترسمة لخطواته ولها ظلال مختلفة وملابس كثيرة وتاريخ الانسانية يتوقف على كثير من المصادفات التي لو تغير بعضها لتغيرت قصة التاريخ واختلف سير الزمان ومسألة تنازل الديكتاتورية التي تنشأ عقب الثورة الشيوعية عن امتيازاتها وسلطانها امر غير منظور ومن الصعب التسليم به والاعتقاد بصحة